اللغة المصرية القديمة

النشأة والتطور والأفول

أ.د. رمضان السيد

منذ وقت طويل حاول المتخصصون مناقشة أصل اللغة المصرية القديمة. وهل كانت من أصل سامى أو على العكس من أصل أفريقى.(١)

ويذكر ول ديورانت أن اللغة المصرية القديمة جاءت من آسيا وتنسب الى اللغات السامية (٢).

بل ذهب البعض إلى أبعد من ذلك وتسأل أيضا ان لم تكن اللغة المصرية القديمة من أصل أجناس جزر المحيط الباسفيكى.

ولكن من المقبول الآن بوجه عام هو أن اللغة المصرية القديمة، والكوشية القديمة واللهجات البربرية فى شمال افريقيا، واللغات السامية تكون فى الواقع أربعة مجموعات أو عائلات لغوية مستقلة الواحدة منها عن الأخرى. ويمكن القول أيضا بأن اللغة المصرية القديمة قد أثرت فى اللغات السامية (العبرية) العربية، الآرامية، البابلية، وأيضا فى بعض لهجات القبائل فى شرق أفريقيا (البشارية ، جالا، والصومال) حتى أن بعض مفردات هذه اللغة نجدها عند قبائل البربر فى شمال افريقيا. كما أنه يوجد الكثير من المفردات فى العربية والتى يرجع أصلها إلى المصرية القديمة. وهذا التأثير يؤكد حقيقة أن جميع هذه اللغات الأربعة مشتقة أصلا من لغة واحدة قديمة مشتركة نشأت على أرض مصر وتطورت بعد ذلك . كما يرى بعض العلماء فى أصول اللغات السامية أنها عبارة عن مجموعة من اللهجات مرجعها أصل واحد.(٣) وهذا يفسر إلى حد ما بعض التشابه الكبير الذى نلاحظه بين بعض مفردات كل مجموعة وأخرى،

وخاصة بين اللغة المصرية القديمة والعربية واللهجات البربرية فى شمال افريقيا واللهجات التى تتحدث بها بعض القبائل فى افريقيا. وهذا يجعلنا نرفض جميع النظريات اللتى نادى بها البعض سابقا لشرح مثل هذا التشابه أو التأثير بأنه نتيجة غزو أو احتلال بدلا من الحديث عن تأثير ثقافى واسع وعميق للحضارة أو للثقافة المصرية القديمة.

ارتبط نشأة الكتابة واللغة المصرية القديمة بالعناصر السكانية الأولى التى سكنت وعمرت وادى النيل، وكانت هذه العناصر خليط من العناصر الحامية والسامية والافريقية، ولهذا السبب وضع علماء اللغة أصل اللغة المصرية القديمة بين السامية والحامية (٤) ولكن نقول أن أصل الكتابة مصرية صميمه لأنها تعبر عن علامات تمثل عناصر وكائنات من البيئة المصرية. ولم ينس مؤرخو وفلاسفة اليونان أن يذكروا أن الكتابة فى مصر القديمة كانت "مصرية النشأة" أى أن المصرى القديم كان أول من اخترعها كما شهد هيرودوت للمصريين القدماء بالسبق فى مجال النقش على الأحجار قائلا:

" انهم أول من حفر الصور (أى المناظر) على الأحجار"(٥) .

كما أن اللغة المصرية القديمة كانت أول لغة فى العالم القديم التى تعبر عن المخلوقات والكائنات الحية والنباتات والأشجار والمياه والانسان وأجزاء من جسم الإنسان وأدوات مادية وكل مايوجد فى أرض البيئة المصرية القديمة(٦).

وثمة اتجاه بين البيالوجرافيين الي اعتبار الكتابة المصرية القديمة اماً واساسا لكل الهجائيات فى العالم القديم ويميل آخرون إلى اشراك الكتابة المسمارية فى هذا الأساس (٧).

ومن صور اللغة المصرية القديمة الكتابة الهيروغليفية التى نراها مدونة على

معظم الاثار والوثائق التى وصلت إلينا والمتناثرة فى ارجاء البلاد. ومن الأفضل القول " اللغة المصرية القديمة" ولانقل " اللغة الهيروغليفية" أو " الهيروغليفية" كما يكتب البعض فى مؤلفاته ومقالاته أو يردد فى احاديثه. وذلك لأن الهيروغليفية هى احدي خطوط اللغة المصرية القديمة. ولهذا فمن الأفضل أيضا القول " الخط الهيروغليفى" أو "الكتابة الهيروغليفية" .

ويرى بعض العلماء أن كلمة هيروغيلفية مشتقة أساسا من كلمتين من أصل يونانى هما:

- hieros بمعنى مقدس أو كهنوتى
- glupho بمعنى نقش أو كتابة.

فكلمة هيروغليفية تعنى اذن "النقش أو الكتابة المقدسة "(٨) . ويبدو أن هيرودوت الذى جاء إلى مصر فى حوالى عام ٤٤٨ ق.م كان أول من استخدم هذه التسمية "الهيروغليفية" لأنه رأى أن أغلب نقوش اللغة المصرية القديمة قد نقش على جدران المعابر الكبرى.

وكان كلمنت السكندرى الكاتب والطبيب المسيحى الذى عاش بين أعوام ١٥٠ و٢١١ ميلادية هو ثانى كاتب استخدم لفظ الهيروغليفية(٩) .

ولو عدنا إلى الوراء بعيدا أى إلى أقدم عصور تاريخ مصر القديم وحضارة مصر القديمة لنبحث عن نشأة اللغة المصرية القديمة نقول:

" ان تاريخ أى شعب بلا استثناء يبدأ باختراع الكتابة، والكتابة ماهى إلا تعبير عن حضارة أمة، ولهذا كانت الكتابة من أهم المعارف التى توصل إليها المصريون القدماء". وكان تسجيل الفكر بالكتابة فتحا كبيرا فى مجالات الحياة الثقافية فى مصر القديمة.

وكان لابد للحضارة المصرية القديمة العريقة من وسيلة اتصال واداة اختزان تحفظ للأجيال المتعاقبة أسرار تلك الحضارة سواء كان ذلك نقشاً على الأحجار أو تسجيلا بالمداد على لفائف البردى، هذه الوسيلة هى الكتابة، التى كانت من أعظم اختراعات المصرى القديم.

وقبل أن يتوصل الإنسان المصرى القديم إلي اختراع الكتابة كان يعبر عما فى فكره بالرسم والنقش (١٠).

ولهذا يرى بعض علماء المصريات أن تباشير الكتابة التخطيطية بدأت فى مصر منذ أواخر العصر الحجرى الحديث وأواخر الألف الرابع ق.م(١١). وذلك قبل شعوب كثيرة فى بلاد الشرق الأدنى القديم (١٢).

ومن الصعب تحديد بداية توصل المصرى القديم إلى معرفة الكتابة ومن المعتقد أنها نشأت أولا فى الدلتا قبل قيام الأسرة الأولى أى قبل حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م بمئات السنين (١٣). فقد عثر على بعض الأوانى الفخارية من عصور ماقبل الأسرات وعليها بعض العلامات الهيروغليفية، التى تمثل نباتات أو أجزاء من نباتات وحيوانات وكائنات من الدلتا (١٤).كما ظهرت بعض علامات الكتابة التخطيطية على بعض الأوانى الفخارية التى عثر عليها فى حضارة نقاده فى الوجه القبلى من نهاية العصر الحجرى الحديث أى منذ حوالى عام ٤٥٠٠ ق.م، وبلغ عدد هذه العلامات حوالى ثلاثين علامة(١٥) . ويرجع الباحث فيسيشل ظهور أول علامات الكتابة الهيروغليفية إلى فترة الملوك أو الحكام الذين حكموا قبل عصر الملك نعرمر- منى أو قبل بداية الأسرة الأولى (١٦).

ومع بداية الأسرة الأولى عام ٣٢٠٠ ق.م تقريبا، اخترع المصرى القديم مجموعة اضافية من العلامات التى كانت تمثل عناصر وأشياء مادية موجودة فى البيئة المصرية

فى ذلك العصر وما كان يحيط بالانسان المصرى عن كائنات وما كان يراه من عناصر فى حياته اليومية. ويبلغ مجموع م الاضافة حوالى ٢٣ علامة وبهذا ارتفع عدد العلامات إلى ٥٣ علامة (١٧).

وعثر كل من املينو وبترى فى حفائرها فى ابيدوس من الفترة نفسها على لوحات صغيرة وسدادات من الطين واختام اسطوانية نقش عليها بالخط الهيروغليفى. كما عثر المرحوم زكى سعد فى حفائره بحلوان من الأسرة الأولى على أوانى من الفخار كتب عليها اسم المادة التى يحتويها الاناء بخط سريع، مما يدل على أن صاحبها أو كاتبها كانت لديه خبرة كافية بالكتابة على الحجر(١٨) . وأصبحت الهيروغليفية منذ هذه الفترة أول خط استخدمه المصرى القديم فى الكتابة (١٩).

ومع قيام الأسرة الأولى بدأنا نرى استخدام بعض العلامات الهيروغليفية فى كتابة اسم الملك نعرمر على صلايته المشهورة والمحفوظة الآن بالمتحف المصرى تحت رقم CG14716.

كما عثر فى الممرات السفلى لهرم جسر المدرج فى سقارة على ممرين سليمين أحدهما كان مملوءا باكوام من الآوانى المصنوعة من المرمر والديوريت والجرانيت والشست والبروفير والبرشا وتحمل كل هذه الآوانى على جدرانها الخارجية سواء بالنقش أم بالكتابة بالمداد الأسود، بعض العلامات الهيروغليفية والتى تعطينا أسماء بعض ملوك الاسرتين الأولى والثانية وبعض القاب كبار الشخصيات (٢٠).

وبالنظر إلى كل هذه الآثار نستطيع أن نقول أنه كان هناك اتجاه لمحاولة نطق بعض الضمائر الشخصية وتحديد العلامات الدالة على الجمع والتعبير عن المخصصات فى نهاية كل كلمة. ويمكن القول بأن هذا الاتجاه بدأ يتطور إلى مايسمى ببداية معرفة قواعد اللغة المصرية القديمة.

ويبدو أن الكتابة قد مرت بمراحل تطور خلال عصر الأسرة الأولى (أى من حوالى عام ٣٢٠٠ إلى ٣٠٤٧ ق.م) أى فى خلال القرنين والنصف هذه نجح المصرى القديم فى زيادة العلامات الهيروغليفية واخترع لأغلب هذه العلامات مايسمى بالنطق أو القيمة الصوتية وأصبح لكل علامة قيمة صوتية ونطق خاص بها. فاخترع المصرى الحروف الساكنة وبعض الحروف المتحركة. وأصبح من الممكن التعبير عن الكلمة أو الاسم بحرف ساكن واحد أو حرفين ساكنين أو ثلاثة حروف ساكنة.

وبدأت اللغة تمر بمرحلة أخرى من التطور حتى ظهر أول ماظهر الصفة والاسم والفعل وحروف الجر. فالصفة هى أول ظاهرة لغوية انسانية ، ثم ظهرت بعد ذلك أسماء المعانى وأسماء الذوات ثم أخيرا حروف الجر البسيطة(٢١).

وفى الفترة من بداية الأسرة الثانية حتى بداية الأسرة الثالثة (أى من حوالى ٣٠٤٧ إلى ٢٧٨٠ ق.م) أى فى خلال فترة القرنين ونصف هذه اخترع المصرى القديم مايسمى بالمفردات أو الكلمات وقسم الكلمة إلى اسم مفرد ومثنى وجمع ومذكر ومؤنث وتوصل إلى اختراع الأفعال والمخصص الذى يساعد على فهم هذا الفعل ودوره. وقسم العلامات إلى صوتية وحسية ومعنوية، ومن الصوتية مالا يعدو النطق بصوت واحد، ومنها مايؤدى إلى النطق بصوتين أو أكثر. وحرص فى كتابة المخصصات على أن يحدد ماهو العام منها وما هو الخاص (٢٢).

ولم تظهر الكتابة ذات المقطع اللفظى الا فى عصر الأسرة الثانية عشرة، ولكنها لم تصبح شائعة الاستخدام الا ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة ولكن المبادئ الصوتية التى وضعت فى الأسرة الحادية عشرة لم تكن بالضرورة نفسها هى التى استخدمت فى الأسرة الثامنة عشرة. وكان الغرض منها فى هذه الفترة هو وضع قيمة صوتية للمفردات التى تعبر عن أسماء أماكن البلاد الأجنبية وأسماء اشخاص وأيضا أسماء

مصرية من أصل أجنبى نتيجة لتأثر اللغة بغيرها نتيجة اتصالات مصر الخارجية فى هذه الفترة الهامة من تاريخها(٢٣).

ولنا أن نأخذ فى الاعتبار أن هذه الكتابة تطلبت وقتا طويلا لتسجيلها ونقشها على مختلف أنواع المادة الأثرية. وكانت اللغة المكتوبة تعكس باستمرار اللغة المتكلم بها فى مختلف العصور.

ومثل لنا المصرى القديم العلامات الواحدة بعد الأخرى مرسومة أو منقوشة بوضوح تام فمثلا نجد رسم الطائر، لايمثل فقط من الجانب، بل أيضا بكل أجزائه الأخرى : الجناحين ، الأعين ، الأرجل الخ ، أى رسم المنظور منه وغير المنظور كما هى العادة فى قواعد فن الرسم والنحت المصرى القديم.

ومن أقدم العلامات التى وصلت إلينا على وثيقة رسمية تلك العلامات المنقوشة على صلاية نعرمر. فنجد على ظهر هذه الصلاية من أعلى اسم الملك كتب بعلامة السمكة والازميل : نعر – مر.

ومن ناحية الأشياء المادية كان من السهل رسمها فى الكتابة الهيروغليفية عن طريق الصورة فمثلا لكتابة كلمات مثل :

سهم ، قمر ، شمس ، مائدة قرابين كان يكفي لذلك رسم صورة هذه الأسماء. وهذا مايسمى بالطريقة الرمزية أو التعبير بالصورة. ولم يكتف المصرى بذلك ولكنه لجأ فى كثير من الأحيان إلى كتابة الاسم بحروفه الأبجدية وكان يضيف الرمز أو الصورة أو المخصص لتأكيد المعنى.

وقد أدرك المصرى القديم أن كتابة الرمز أو الصورة أو المخصص وحده قد يؤدى إلى سوء فهم مايراد التعبير عنه لاننا نجد أن المخصص الواحد أحيانا يستخدم كمخصص لأكثر من كلمة بمعانى مختلفة، فمثلا إذا اخذنا مخصص قرص الشمس

نجده فى المفردات الدالة على :

اليوم ، الشمس المحرقة ، فعل يشرق، ظرف الزمان بالأمس، يقضى النهار ، ساعة ، فترة زمنية ، الأبدية، شهر، صباح، لحظة، لذلك اعتمد على كتابة الكلمة بالحروف الأبجدية للتفرقة بين مختلف المعانى.

ولهذا كان من الأفضل له دائما أن يكتب الفعل أو الاسم المراد التعبير عنه بحروفه الهجائية مع كتابة المخصص أو عدم كتابته.

وأدرك المصرى القديم أنه للتعبير عن أفعال تدل على الشعور والاحساس والعواطف والتعلم والحديث والكلام والمأكل والمشرب، نجد أنه اختار مخصصا واحدا لايتغير لكل هذه الأفعال وغيرها وهو «الرجل الجالس الذى يضع يده اليمنى فى فمه".

ولما كانت بعض المعانى مجرده إلى حد يصعب معه تصويرها تصويرا حرفيا، فقد استعيض عن الرسم أو النقش بوضع رمز أو مخصص يدل عليها.

وكانت الكتابة المصرية القديمة تتألف من ثلاثة أشكال من العلامات :

علامات صورية : أى تعبر عن شئ مادى يرسم بصورته.

علامات صوتية : وهى علامات تبلغ أربعة وعشرين علامة صوتية وجدت وكأنها حروف هجائية.

علامات كمخصصات : وهى علامات تلحق بالكلمات المتفقة صوتا والمختلفة فى المعنى لتحديد المعنى المقصود وهو مايسمى "بالمخصصات".

وكانت هناك طريقتان لكتابة الهيروغليفية:

أما أن تكتب بين خطوط أفقية أو عرضية وتقرأ عادة من اليسار إلى اليمين أو من اليمين إلى اليسار حسب اتجاه العلامات فى الكتابة . وطبقا أحيانا لاتجاه المنظر الذى تحيط به النقوش.

وأما أن تكتب بين خطوط عمودية أو رأسية وتقرأ أيضا حسب اتجاه العلامات فى الكتابة أما من اليسار إلى اليمين أو من اليمين إلى اليسار. ولكن فى معظم الأحيان كان الاتجاه السائد هو الكتابة من اليسار إلى اليمين. والذى كان يحدد الاتجاه فى القراءة فى كلتا الحالتين هو اتجاه الانسان أو أجزاء جسمه فى المنظر.فإذا اتجه وجه الإنسان إلى اليسار تكون القراءة من اليسار إلى اليمين . وإذا اتجه وجه الإنسان نحو اليمين فتكون القراءة من اليمين إلى اليسار.

ويرى علماء اللغة المصرية القديمة وعلى رأسهم "ادل" و"جاردنر" ان المصرى القديم قد أتم اختراع عناصر لغته فى عصر الدولة القديمة.

ويرى " أدل" أن ذلك تم بالتحديد فى الفترة من بداية الأسرة الرابعة حتى نهاية الأسرة السادسة (أى من ٢٦٨٠ إلى ٢٢٦٣ ق.م) (٢٤) أى فى مدة تقرب من أربعة قرون نجح خلالها فى اختراع كل الأزمنة وكل مايخص فقه اللغة حتى أصبحت لغة متكاملة العناصر(٢٥).

بينما يرى فيسيشل ان تكوين عناصر اللغة تم فى عصر الأسرة الثالثة وأن النصوص الفعلية لم تظهر الا فى الأسرة الرابعة (حوالى ٢٦٥٠ ق.م)(٢٦) . وتوصل المصرى القديم إلى معرفة الحروف الأبجدية، وكان جاردنر أول من أشار إلى أن

الأبجدية المصرية القديمة كانت تتكون من أربعة وعشرين حرفا(٢٧).

ومن هذه الحروف كون المصرى القديم الكلمات وقسم الكلمة إلى اسم مفرد ومثنى وجمع ومذكر ومؤنث وتوصل إلى معرفة الفعل والمصدر وقسم العلامات إلى ثلاثة أنواع(٢٨).

وكون الجملة من الأفعال والأسماء وحروف الجر. وقسم الجملة إلى فعلية واسمية ، وعرف الأزمنة المختلفة : المضارع والماضى والمستقبل والمبنى للمعلوم والمبنى للمجهول، واستخدام الصيغة الفعلية. كما عرف الضمائر الشخصية بأنواعها واستخداماتها. وعرف أسماء الاشارة وحروف الجر البسيطة والمركبة وأدوات التعريف وأدوات النفى وأدوات الشرط وعلامات الاستفهام والأفعال المساعدة والتمييز وأساليب التعجب والمقارنة والتفضيل والنعت والعطف والربط وصيغة الماضى التام والمستمر والحال. واخترع العلامات الدالة على الحساب والجمع والطرح والكسور بأنواعها وغيرها.

وعندما حل عصر الدولة القديمة فى بداية عام ٢٧٨٠ حتى عام ٢٢٦٣ ق.م، بدأت تظهر على الآثار المتنوعة نصوص متكاملة الاجرومية وسليمة القواعد والأزمنة. وأصبح لدى المصرى القديم لغة متكاملة سليمة بكل قواعدها المعروفة. وأصبح الخط الهيروغليفى هو الخط الرسمى فى كل العصور حتى عصور الاحتلال الأجنبى أى عصر البطالمة والرومان.

وبعد انتهاء عصر الدولة القديمة مرت اللغة المصرية القديمة بعدة مراحل للتطور حتى أصبحت فى النهاية تحتوى على عشرين ألف كلمة أو مفرده(٢٩) . وما لاياقل عن سبعمائة علامة مختلفة تعبر كل منها عن رمز معين ومعنى معين(٣٠) .

وفى عصر الدولة الحديثة (١٥٨٠-١٣٢٠ ق.م) كتبت اللغة المصرية القديمة بخط آخر جديد، بجوار استخدام الخط الهيروغليفى. وهو الخط الهيراطيقى. وهى تسمية مأخوذة أيضا من اليونانية hieratikos أى الكهنوتى وهو خط استخدمه الكهنة بكثرة فى النصوص الدينية. ولكنه لم يكن قاصرا على طبقة معينة من طبقات المجتمع المصرى القديم. ويغلب على هذا الخط الجديد شكل الكتابة المتشابكة أى أن العلامات المكتوبة متصلة بعضها ببعض . واختصرت العلامات وأصبحت خطوطا.

وفى عصر الأسرة السادسة والعشرين أى حوالى ٦٦٣ ق.م ظهر خط ثالث هو الخط الديموطيقى، والذى سمى باليونانية Enkhoris التى تعنى الخط الشعبى، وقد اسماه كلمنت السكندرى†Epistographisأى يختص بكتابة الرسائل والخطابات . وأسماه هيرودوت : ديموطيقى †demo tisمن اليونانية demotikos أى الشعبى . وقد تطور هذا الخط عن الخط الهيراطيقى فى نهاية الأسرة الخامسة والعشرين . وكانت علاماته أشد اختصارا من علامات الخط الهيراطيقى ومن الصعب قراءته بسهولة. وكتب بهذا الخط على أوراق البردى . واستخدم غالبا فى النصوص غير الدينية مثل البرديات القانونية والادارية . واستخدم فى العصر البطلمى - الرومانى فى الكتابة العادية فى الحياة اليومية(٣١) .

وعندما دخلت المسيحية مصر فى القرن الثالث الميلادى فى نهاية العصر الرومانى، كان لابد من اختراع كتابة تصلح لترجمة نصوص الكتاب المقدس. ومن أجل ذلك ظهر الخط القبطى أو الكتابة القبطية . وهى ليست لغة جديدة ومن الخطأ تسميتها باللغة القبطية (٣٢). ولكن من الأفضل أن يطلق عليها اسم الخط القبطى أو اللهجة القبطية للغة المصرية القديمة. لأنه يمثل الصورة الأخيرة أو الصورة الرابعة من تطور أشكال الكتابة للغة المصرية القديمة.

وكان أول إنجاز بالخط القبطى هو نقل الإنجيل إلي المصريين فى لغة مصرية وثوب مصرى ليس بالأجنبى اليونانى أو اللاتينى. وهكذا صار أقباط مصر يسطرون بخط ولهجة خاصة بهم اصطلح العلماء على تسميتها بالقبطية وكان لها خمس لهجات رئيسية :

- اللهجة البحيرية : وانتشرت فى الاسكندرية والدلتا بوجه عام.(٣٣)
- اللهجة الصعيدية : وكانت لهجة معظم اقاليم الصعيد.(٣٤)
- اللهجة الاخميمية : وقد سميت هكذا نظرا لوجود أكثر مخلفاتها فى اخميم . وهى تعتبر من أقدم اللهجات المعروفة فى صعيد مصر(٣٥) .
- اللهجة الفيومية : وكانت منتشره فى المناطق حول بحيرة الفيوم.(٣٦)
- لهجة تشبه الاخميمية : وكانت منتشرة فى منطقة أسيوط.(٣٧)

وأخيرا كان هناك مايسمى باللهجة المنفية نسبة إلى مدينة منف . وكانت لهجة أهل أقاليم مصر الوسطى، ولم تعمر هذه اللهجة طويلا، فقد طغت عليها اللهجة البحيرية من الشمال واللهجة الصعيدية من الجنوب.(٣٨)

أطلق المصريون القدماء على لغتهم ثلاثة أسماء أقدمهما:

- را- ان - كمت الذي يعنى "لسان (أو حديث أو لغة) الأرض السوداء (أى أرض مصر)" وذلك منذ عصر الدولة الوسطى.(٣٩)
- مدت - ان - كمت الذي يعنى " كلام (أو حديث) الأرض السوداء" وذلك منذ عصر الدولة الحديثة(٤٠) .
- مدت - رمث - ان - كمت الذي يعنى " كلام (أو حديث) أهل الأرض السوداء" وذلك منذ عصر الدولة الحديثة أيضا(٤١).

كما أطلق المصريون القدماء على خطهم الرسمى أى الهيروغليفى تعبيرين أقدمهم :

- مدو - نثر : بمعنى " الكلام المقدس أو الأقوال المقدسة" اشارة إلى قداسة أصلها واكبارا لأصحاب الفضل فى اختراعها والتسطير بها لأول مرة منذ أقدم العصور.(٤٢) وقد عرفت هذه التسمية منذ عصر الدولة القديمة فى نصوص الاهرام (٤٣).

- سش - ان - مدو - نثر : بمعنى : "كتابة الكلام المقدس" وقد عرفت هذه التسمية فى العصر المتأخر(٤٤) .

وكما كان أول ظهور رسمى للكتابة الهيروغليفية كما ذكرنا من قبل كان على صلاية نعرمر منذ عام ٣٢٠٠ ق.م تقريبا فإن آخر ظهور للكتابة الهيروغليفية كان فى عام ٢٩٦ ميلادية فى نقوش معبد فيله باسوان (٤٥). ويمكن القول بناء على ذلك أن الكتابة الهيروغليفية عاشت لمدة تقرب من أربعة آلاف عام. وتعرضت اللغة المصرية خلال هذه الفترة الطويلة من القرون المتتابعة لتغييرات فى فقهها وقواعدها ومفرداتها وفى شكل كتاباتها.

وفى خلال عصر البطالمة والرومان الذي استمر وحده أكثر من سبعة قرون تمسك المصريون القدماء بلغتهم القومية وتمسكوا بالتعبير بها بخطوطها الثلاثة : الهيروغليفى، الهيراطيقى، الديموطيقى.

ومن أجمل نقوش الكتابة الهيروغليفية ماسطر منها على جدران المعابد الكبرى من هذه الفترة خاصة رمعابد دندره، اسنا، ادفو، كوم ، فيله ، كلابشه.

وتتضمن هذه النقوش الجميلة مختلف العقائد الدينية فى مصر القديمة، كأنها كتاب مفتوح ومفصلة تفصيلا شاملا ودقيقا على نحو لم يسبق له مثيل. ومنها عقائد

من عصور سالفة حفظها الكهنة فى اذهانهم. ولاشك فى أن إنجاز مثل هذه النقوش بهذا الاتفاق اقتضى قدرا كبيرا من البحث والدراسة من قبل الكهنة والكتبة المصريين المتخصصين فى نسخ النصوص ومعرفة فقه اللغة المصرية القديمة والذين اسماهم "نوما" "الهيروجرامات"(٤٦).

والذين وجهوا عنايتهم إلي المحافظة على هذا التراث الدينى والثقافى وصيانته من الضياع، وبدلا من تسجيله على أوراق البردى المعرضة للتلف بسهولة، سجلوه باسهاب وباتقان شديدين على جدران المعابد لأنهم اعتبروا أنفسهم مع كبار الكهنة حماة هذا التراث الدينى وهذه الكلمات المقدسة.(٤٧) لأنهم كانوا أقدر الناس على تسجيله والاشراف على كتابته ومراجعته ونقشه وزخرفته داخل هذه المعابد الكبرى حتى يدرك حكام البطالمة والرومان عمق الديانة المصرية فى قلوب أهلها وقلوب أهل الفكر والثقافة فيها. ولهذا تجمع لتحقيق هذا الهدف عدد كبير من الكتبة المتخصصين " الهيروجرامات" والفنانين فى مجالات النحت والنقش والرسم والتلوين.

وكان آخر ظهور للكتابة الديموطيقية فى عام ٤٧٤ ميلادية فى نقوش معبد فيله أيضا باسوان(٤٨).

ولكن ترك الهيروغليفية أو الديموطيقية لايعنى مطلقا نهاية اللغة المصرية القديمة. ولكن هذه اللغة عاشت فى اللهجة القبطية التى كان يتحدث بها أقباط مصر ويكتبونها بالأبجدية اليونانية أضيفت إليها سبعة حروف اقتبسوها من الديموطيقية للتعبير عن بعض الأصوات التى تنقص اللهجة القبطية.

وقد نشأت الأبجدية القبطية حوالى عام ١٨٠ ميلادية وظلت مصر تؤمن بالمسيحية حتى دخول العرب مصر عام ٦٤٠ ميلادية. وبعد دخولهم مباشرة حلت الكتابة القبطية فى تدوين الوثائق الرسمية بدلا من اليونانية ولكن فى القرن الثامن

الميلادى حلت اللغة العربية محل الكتابة القبطية فى الدواوين والوثائق.(٤٩) ومن هذا الاحلال نتج تاثر اللغة العربية بكلمات كثيرة أصلها مصرى قديم. وأصبح لايتحدث باللهجة القبطية الا فى المناطق البعيدة من صعيد مصر. وفى الكنائس والأديرة استخدمت اللهجة البحيرية فى الشعائر ولكن معرفة القساوسة اقتصرت فقط على قراءة النصوص(٥٠).

ويتضح من كل ماتقدم أن الرحالة اليونان وكلمنت السكندرى هم الذين اطلقوا التسميات الثلاثة على خطوط اللغة المصرية القديمة : الهيروغليفى والكتابة المقدسة، الهيراطيقى (الكتابة الكهنوتية) الديموطيقى (الكتابة الشعبية) وذلك عندما جاءوا إلى مصر أو استقروا فيها وشاهدوا أن الخط الهيروغليفى مدون بكثرة على جدران المعابد والمقاصير والهياكل، واعتقدوا أيضا بأن الكهنة هم وحدهم الذين يعرفون الخط الهيراطيقى ويكتبون به ، وظنوا أن عامة الشعب هى التى تكتب بالخط الديموطيقى(١٥) .

ولكن الحقيقة أن القدسية هنا فى وصف الكتابة الهيروغليفية ليست من وحى اليونانيين أو كلمنت السكندرى (٥٢)، ولكنها نابعة أساسا من عقيدة المصريين القدماء أنفسهم باستخدامهم التعبير المركب : "مدو- نثر" (الكلام المقدس) وذلك للتعبير عن خطهم الرسمى.

الا يدعونا كل هذا إلي التأمل والتفكير العميق فى كل ما أنجزه المصرى القديم وأهل الثقافة فى مصر القديمة من جهود لاختراع لغة متكاملة العناصر لها أكثر من خط تكتب به ، تلك اللغة التى لازالت حتى يومنا هذا تبهر علماء المصريات من الغرب.

فمنذ نجاح شامبوليون عام ١٨٢٢ فى قراءة الكتابة الهيروغليفية المدونة على حجر رشيد، نجد أنه وضع بعض الأسس لدراسة اللغة المصرية القديمة، مما اتاح

السادسة : ٢٧٨٠-٢٢٦٣ ق.م) وازدهرت خلال عصور الدولة الوسطى (من الأسرة التاسعة حتى نهاية الثالثة عشرة :٢٦١٠ -١٧٤٠ ق.م) وتطورت خلال عصر الدولة الحديثة (من الأسرة الثامنة عشرة حتى الأسرة العشرين :١٥٨٠-١٠٨٥ ق.م) وأصبحت أكثر تطورا فى العصر المتأخر (من الأسرة الحادية اوالعشرين حتى نهاية الأسرة الثلاثين :١٠٨٥-٣٣٢ ق.م) حتى أصبحت أكثر صعوبة فى فهم تركيباتها اللغوية فى العصر البطلمى (٣٣٢-٣٠ق.م) حتى بلغت مرحلة التعقيد من ناحية فقه اللغة والقيم الصوتية لمفرداتها وفهم الجمل وتركيباتها فى العصر الرومانى (٣٠ ق.م-٣٩٥ ميلادية).

ففى هذه الفترة من العصر البطلمى - الرومانى التى تمسك فيها المصريون القدماء بلغتهم وخطوطها الثلاثة نجد أن اللغة وقواعدها أصبحت أكثر صعوبة فى فهمها لأن القيم الصوتية لمفردات اللغة تغيرت إلى حد كبير وأصبح للكلمة الواحدة أكثر من نطق واحد أو أكثر من قيمة صوتية واحدة(٧١) . واستخدم المصريون القدماء لغة كلاسيكية ولكن كتبت بحروف ومفردات معقدة جدا كانت تغطى معظم جدران المعابد البطلمية والرومانية فى صعيد مصر(٧٢) .

كل ذلك لكى ندرك مدى ثراء عالم اللغة المصرية القديمة ومدى ثراء الثقافة المصرية القديمة التى جذبنا إليها المصرى القديم وليس مستغربا أن يذكر ول ديورانت عن الكتابة الهيروغليفية بأنها:

" أجمل نمط من الكتابة عرف حتى الآن"(٧٣) ولنا أن نضيف فى "العالم".

Gardiner, Egyptian Grammar, Oxford 1957	٥٤
Erman, Neuagyptische Grammatik , Berlin 1933	٥٥
Gerny - Groll . A late Egyptian Grammar , Rome 1975	٥٦
Junker , Grammatik der Dendera taxte leipzig 1906	٥٧
Moller , Hieratische paleographip , 3 vols . Leipzig 1909-1912	٥٨
Mullar , Hierstsche lesestucke , 3 vols .Leipzig 1909-1910	٥٩
Devaud , L'Age des lapyrus Egyptiens Hieratiques , paris 1924	٦٠
Spiegelberg , Demotische Grammatik, Heidelberg 1925	٦١
Erichsen , Demotisches Glossar , Copenhague 1954	٦٢
Luddeckens . Demotisches Namenbuch , Wiesbaden 1983	٦٣
Erichsen , Demctische Leses tucke , 2 vols. Leipzig 1937-1939	٦٤
Till koprische Grammatik , Leipzig 1961	٦٥
Gram , A Coptic Dictionary , Oxfod 1939 , 1962	٦٦
Sethe , Die Nominalsatz in Agyptischen und koptische leipzig 1916	٦٧
Cerny , Coptic Etymological Dicitonary , london 1976	٦٨

الفرصة لعلماء المصريات من بعده أن يبذلوا جهودا مضاعفة لدراسة هذه اللغة . وقاموا بتأليف العديد من المؤلفات لدراسة اللغة وقواعدها وأشكال كتاباتها حتى أصبح في العديد من الجامعات في الشرق والغرب المتخصص أو أكثر من متخصص في قواعد اللغة المصرية القديمة كما أصبح هناك متخصص أو أكثر من متخصص في خطوط أو كتابات اللغة المصرية القديمة.

وكثرت المؤلفات عن قواعد اللغة المصرية القديمة في عصر الدولة القديمة(٥٣)، وفي عصر الدولة الوسطى(٥٤)، وفي عصر الدولة الحديثة(٥٥) ، وفي العصر المتأخر(٥٦) ، وفي العصر البطلمي(٥٧)، كما أصبح هناك أكثر من مؤلف علمي له قيمته عن الخط الهيراطيقي(٥٨) والقطع النموذجية لقراءة الخط الهيراطيقي (٥٩) . وشكل بعض الكلمات في الهيراطيقية(٦٠) . ومؤلفات في قواعد الديموطيقية(٦١) ومفردات الديموطيقية(٦٢) والأسماء الديموطيقية(٦٣) أو القطع النموذجية لقراءة الخط الديموطيقي(٦٤) . كما أن هناك مؤلفات في قواعد القبطية(٦٥) ومفردات القبطية ولهجاتها والعلاقة بين المصرية القديمة واللهجات الطبقية(٦٦)، ومفردات القبطية(٦٧) وأصولها المصرية القديمة(٦٨)، والمقارنة بين النصوص الديموطيقية والقبطية(٦٩) وغيرها من مؤلفات عن تأثير اللغة المصرية القديمة في غيرها من لغات ولهجات الشعوب المجاورة(٧٠).

وسمحت كل هذه الدراسات والمؤلفات العلمية لعلماء اللغة المصرية القديمة من اوروبا ومن أمريكا بأن يتتبعوا أصول اللغة المصرية القديمة ونشأة الكتابة وخصائصها وتطورها وبداية معرفة اللغة المتكاملة العناصر ومراحل تطورها وتطور أشكال كتاباتها عبر العصور المختلفة وذلك منذ بداية ظهور علاماتها على بعض الأوانى الفخارية في حضارات عصور ماقبل التاريخ خاصة في حضارة نقادة من نهاية الألف الرابع ق.م حتى نشأت واكتملت عناصرها خلال عصور الدولة القديمة (من الأسرة الرابعة حتى